

الخاتمة

١

الصعاليك :

رأينا أن مادة « صعلك » تدور في دائرتين اصطلاحنا على تسميتهما بالدائرة اللغوية والدائرة الاجتماعية ، وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هي الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنهى حيث بدأت عند الفقر ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يظل في نطاقها فقيراً ، لأنه لا يستطيع أن يغير الوضع الاجتماعي الذي فرض عليه لضعف في نفسه ، أو لضعف في جسده ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتبعد عن نقطة البدء محاولة ألا تنتهى عندها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على هذا الفقر ولكن بطريقة خاصة هي تلك التي جعلنا شعارها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، تدفعه إلى ذلك قوة في نفسه وقوة في جسده ، أي أن المادة في هذه الدائرة الاجتماعية قد اكتسبت صفات اجتماعية جديدة .

ووقفنا بعد ذلك نلتمس السر في نشأة هذه الظاهرة ، فنظرنا في المجتمع الجاهل من ناحية بيئته الجغرافية ، ورأينا أن الظاهرة الجغرافية التي تسيطر على هذا المجتمع هي ما اصطلاحنا على تسميتها « بظاهرة التضاد الجغرافي » ، ورأينا أن هذه الظاهرة كانت العامل الأول في نشأة حركة الصعاليك ، لأنها كانت السبب في وجود الفقر وفي إحساس الفقراء به . ورأينا أن هذه الظاهرة تدخلت مرة أخرى في توجيه حركات الصعاليك التي كانت تخرج دائماً من المناطق الجبلية إلى المناطق الحصبية ، ورأينا أن كل مناطق الحصب في الجزيرة العربية قد تعرضت لغزوات الصعاليك ، ثم رأينا أنه من الممكن أن نحدد مناطق

حركات الصعاليك، فرأينا أن عروة وصعاليكه قد توزع نشاطهم بين منطقتين أساسيتين : منطقة نجد ، ومنطقة يثرب وما يجاورها شمالى جزيرة العرب ، وإن لم يمنع هذا من أن يغير أحياناً على غير مناطق اختصاصه ، ورأينا أن منطقة جبال السراة فيما بين مكة والطائف وأول الطريق الصاعد إلى اليمن هى المنطقة التى شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب ، وأن أشهر الصعاليك الذين انتشروا فى هذه المنطقة صعاليك فهم وهذيل ومن انضم إليهم من خلعاء القبائل وشذاها ، ورأينا أن منطقة اليمن عرفت أجزاءها القريبة من الحجاز صعاليك من فهم ومن الأزد ، وأما أجزاءها البعيدة فقد تخصص فى الإغارة عليها السليك ، وإن يكن تأبط شرا يتعدى أحياناً على منطقة اختصاص السليك . ولفت نظرنا فى صعاليك هاتين المنطقتين أن أكثرهم - إن لم يكونوا جميعاً - من العدائين ، وقد رددنا هذا إلى ثلاثة عوامل ؛ طبيعة المنطقة الجبلية ، وبعد الأهداف ، وقلة الخيل . ثم وقفنا عند هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العدو ، وقلنا إنها ليست بالظاهرة المستحيلة ، وإنما هى صورة من صور التكيف العضوى بين الإنسان وبيئته .

ثم مضينا إلى المجتمع الجاهلى نلتمس فيه تفسيراً لظاهرة التصعلك ، فرأينا أنه مجتمع قبلى ، آمنت كل قبيلة فيه بوحدتها الاجتماعية وبكرم جنسها ، ورأينا أن إيمان القبيلة بوحدتها أوجد طائفة الخلعاء والشذاذ فى هذا المجتمع ، وأن إيمانها بجنسها أوجد طائفة المهجناء والأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شئى القبائل قد اجتمعوا فى عصابات من صعاليك العرب ، كافرين بالعصبية القبلية ، مؤمنين بعصبية مذهبية ، معتمدين على قوتهم فى سبيل العيش ، شأنهم فى ذلك شأن المجتمع الذى يعيشون فيه ، غاية ما فى الأمر أن عملهم فردى يجرى بدون رضا القبيلة ، وعمل القبائل جماعى معترف به .

ثم مضينا إلى الناحية الاقتصادية فى هذا المجتمع فرأينا أن الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصور ممرًا تجاريًا نشطاً لطرق القوافل ، وأنه على طول هذه الطرق قامت مجموعة من الأسواق . ورأينا أن مراكز نشاط الصعاليك كانت

عادة على طول هذه الطرق ، وبالقرب من هذه الأسواق . ورأينا أن الصعاليك قد استغلوا هذه الأسواق استغلالاً آخر فكانت لهم فرصة ينتقون فيها ضحاياهم . وقد عللنا كثرة الصعاليك في منطقة السراة حول مكة بوقوع هذه المنطقة على الطريق التجارى ، وبوجود ثلاث أسواق مشهورة فيها . ورأينا أن هذه الأسواق قد شهدت السطور الأولى من قصة طانفتين من طوائف الصعاليك هما طائفة الأغرية وطائفة الخلاء ، ففي هذه الأسواق - أو في بعضها على الأقل - كانت تجرى تجارة الرقيق التى كانت سبباً في نشأة طبقة الأغرية ، وفيها - أو في الأسواق الأساسية منها - كان الإعلان الرسمى الذى تديعه القبائل عن خلعها بعض أفرادها الخارجين عليها .

ورأينا أن المدن العربية قد عرفت لوناً من النشاط التجارى الذى ترتب عليه تضخم الثروة وتركزها في أيدي نفر قليل من أهلها ، الأمر الذى أحدث لوناً من الاختلال الاقتصادى ، نشأت عنه كثرة عدد الصعاليك الذين كانوا في حالة سيئة حملت أكثرهم على الهرب إلى الصحراء واللحاق بعصابات الصعاليك المنتشرة بها .

فإذا مضينا إلى داخل البادية العربية وجدنا ثمة صراعاً بين طبقة أصحاب الإبل وطبقة الصعاليك ، وقد رددنا هذا إلى التفاعل بين ظاهرتين متناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادى ، وظاهرة القرب النفسى ، ورأينا أن مادة هذا الصراع التى دار حولها كانت عادة الإبل ، لأنها الثروة الأساسية في المجتمع البدوى ، وإن لم يمنع هذا من أن تمتد أيدي الصعاليك إلى أية غنيمة تعرض لهم .

٢

شعر الصعاليك :

رأينا أن شعر الصعاليك لم يصل إلينا منه مجموعاً سوى ديوانين هما ديوان عروة وديوان الشنفرى ، ورأينا أن هذا الشعر قد توزع بين مصادر الثقافة

العربية المختلفة ، وأن من يريد أن يجمع « ديوان الصعاليك » عليه أن يتقن بين كل هذه المصادر . وقد لاحظنا على المادة التي جمعناها والتي تكون ديوان الصعاليك ثلاثة أشياء : قلتها ، وكثرة الاضطراب في رواية نصوصها ، ثم الشك الذي يحيط ببعض نصوصها . ورأينا أن مجموعة شعر الصعاليك التي دار حولها الشك نوعان : فمجموعة كان الشك فيها « داخلياً » ، والخطب في هذه المجموعة هين ، ومجموعة كان الشك فيها « خارجياً » ، وأشهر شعر هذه المجموعة لاميتان تنسبان لتأبط شرا والشنفرى ويتم خلف الأحمر بصنعهما ، وقد وقفنا عند هاتين اللاميتين طويلاً ، وانتهينا إلى ترجيح نسبتها إلى خلف .

ثم مضينا إلى مجموعة شعر الصعاليك فدرسنا موضوعاتها ، ورددنا هذه الموضوعات إلى مجموعتين أساسيتين : مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، ومجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة .

ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد تعرضوا في المجموعة الأولى لكل ما كان يدور في حياتهم الفردية أو حياتهم الجماعية ، فتحدثوا عن مغامراتهم ، وعن تربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم ، وعن توعدهم أعداءهم وتهديدهم لهم ، وعن أسلحتهم سواء منها أسلحة الهجوم أو أسلحة الدفاع ، وتحدثوا عن رفاقهم الذين رافقوهم في هذه المغامرات ، وتحدثوا عن فرارهم وهربهم ، وعن سرعة عدوهم ، وعن غزواتهم على الخيل ، وعللوا لمغامراتهم ، وفسروا الدوافع التي دفعتهم إليها ، وذكروا العقد النفسية التي كانت سبباً لها ، كما تحدثوا عن آرائهم الاجتماعية والاقتصادية ، وعن تشردهم في أرجاء الصحراء المقفرة ، واتصالهم بحيوان الصحراء ووحشها وأشباحها .

أما المجموعة الأخرى ، مجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة ، فإننا تلمسنا أولاً آثار القبلية فيها ، ولاحظنا أن هذه المجموعة من الشعر القبلي التي تقابلنا في شعر الصعاليك قليلة . كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً .

ثم مضينا بعد ذلك إلى المخضرمين من الشعراء الصعاليك نتلمس الآثار

الإسلامية في شعرهم بعد الإسلام . ومن الطبيعي أن موضوعات هذه المجموعة الإسلامية قد خلت من تلك الموضوعات التي عرفناها في شعرهم داخل دائرة الصعلكة ، ومع ذلك فقد رأينا رواسب ضئيلة من الصعلكة تتسرب من حين إلى حين في أثناء هذا الشعر .

ثم مضينا ندرس الظواهر الفنية في شعر الصعاليك ، فلاحظنا أول ملاحظتنا أنه شعر مقطوعات ، وقد ملنا في تحليلنا لهذا إلى طبيعة حياة الصعاليك نفسها ، تلك الحياة القلقة التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطوله وتجويده . ثم لاحظنا ظاهرة أخرى وهي ظاهرة الوحدة الموضوعية ، ورأينا أن أكثر مقطوعات شعر الصعاليك وقصائده تقبل العناوين ، بل إن مطولاته — برغم تعدد أغراضها — نستطيع أن نردها إلى أصل موضوعي واحد ، فليس التعدد هنا تعدداً في الموضوع ، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع الواحد ، ورأينا مع ذلك أن هناك طائفة قليلة جداً من قصائد شعر الصعاليك لا تخضع لهذه الظاهرة ، وقد رددنا هذا إلى ما سميناه «ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلي في صورته الشكلية» ، وقلنا إن هذه الظاهرة ليست من الخطر في شيء على الفكرة التي نقررها . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك قد تخلص من المقدمات الظلية التي عرفها الشعر القبلي ، ما عدا تلك المجموعة التقليدية ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك استعاضوا عنها بمذهب آخر أطلقنا عليه «مقدمات القروسية في شعر الصعاليك» . ثم لاحظنا بعد ذلك أن شعر الصعاليك قد تخلص أيضاً من التصريح في مطالع نماذجه الفنية ، ورأينا أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك . ثم لاحظنا بعد ذلك أن مجموعة شعر الصعاليك التي اصطلمحنا على تسميتها « الشعر داخل دائرة الصعلكة » قد تحلّل أصحابها من الشخصية القبلية، وحلت محلها ظاهرة أخرى أطلقنا عليها «ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك» ، وأن هذه الظاهرة كانت ظاهرة شاذة في المجتمع الأدبي الجاهلي فأطلقنا على الشعراء الصعاليك « أصحاب المذهب الشاذ في الشعر الجاهلي » . ثم درسنا

ظاهرة القصصية في شعر الصعاليك ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد استغلوا في شعرهم كل ما يدور في حياتهم الحافلة بالحوادث المثيرة استغلالاً قصصياً رائعاً ، وانتهينا إلى أن شعر امرئ القيس ليس نقطة البدء في تاريخ القصة الشعرية ، وإنما تسبق هذا مرحلة أولى هي مرحلة الشعراء الصعاليك الذين تميل إلى أن امرأ القيس قد تأثر بهم في فنه ، ومن هنا أطلقنا على الشعراء الصعاليك « رواد القصة الشعرية في الأدب العربي » . ثم وقفنا طويلاً عند الواقعية في شعر الصعاليك ، وبيننا مظاهرها المتعددة . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك يمتاز بالسرعة الفنية ، وأن ميزته الكبرى «خفوت الصنعة الفنية» . ورأينا أن التشبيه أقوى الألوان الفنية التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك ، ووقفنا طويلاً عند هذه الظاهرة ، فدرسنا المنابع المختلفة التي تكوّن « صندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك » ، وكيف استغلوها ، ورأينا إلى جانب التشبيه ألواناً فنية أخرى من ألوان الصنعة الفنية المتهمة ، فدرسنا النماذج الفنية التي رأيناها فيها . ثم وقفنا بعد هذا عند الخصائص اللغوية في شعر الصعاليك ، ورأينا أولاً أن لغتهم هي اللغة الأدبية التي عرفها العصر الجاهلي ، غير أننا لاحظنا أنها أقرب إلى فطرة اللغة العربية وأصدق تمثيلاً لها ، ولاحظنا كثرة الغريب في شعرهم . ثم وقفنا أخيراً عند الظواهر العروضية في شعرهم ، ورأينا أن أوزان شعرهم وزحافات هي الأوزان والزحافات التي عرفها سائر الشعر الجاهلي . غير أننا لاحظنا انتشار الرجز في شعرهم الذي قالوه قبيل مصارعهم .

ثم وقفنا بعد ذلك عند شخصيتين متميزتين من الشعراء الصعاليك تميزاً اجتماعياً وفنياً: عروة بن الورد الذي يمثل شخصية الصعلوك صاحب المذهب الإنساني ، أو شخصية الزعيم الذي يدعو الجماهير إلى الإيمان بمذهبه ، والشنفرى الذي يمثل شخصية الصعلوك المتمرد الذي رأى أن يكون تمرده الوسيلة والغاية معاً .

وبعد ، فهذه هي ظاهرة الصعلكة في المجتمع الجاهلي كما رأيناها في شخصيات صعاليكه ، وهذه هي دراستنا الفنية لما بين أيدينا من شعرهم .

والله ولي التوفيق .